

من تاريخ الاسماعيليين

حول رسائل اخوان الصفاء وخبرون الوفاء

أتناول بمقالتي هذا بحث موضوع خطير طالما كان ولما يزل مثاراً للجدل والمناقشات ومداراً للأخذ والرد بين طائفة من كتاب وادباء كانت جل ابحاثهم عنه إذا ما أردنا تحليلها لا تخرج عن حدود التخمين والاستنتاج العقلي كما اعتقد ويثبت الواقع .

ولئن كنت أخوض الآن هذا البحث العميق عن « الرسائل » فلأن « جماعة » إخوان الصفاء وخلان الوفاء يتون إلىنا بصلة الجنسية والعقيدة أقول مفتخراً بل هم اجدادنا الأولون الذين نقدر اسمهم ونحافظ على تعاليمهم وما جاء فيها من علوم وفلسفة وفنون . زد على ذلك إحلالنا وسائلهم « وجامعتها » المكان المرموق والمنزلة العليا ، هذه الرسائل التي لا يكاد يخلو منها بيت أحد من « الاسماعيليين » في سوريا . إذن وكثيراً ما يكون صاحب البيت أدوى بالذي فيه . . .

لم ينصف التاريخ القديم للطائفة « الاسماعيلية » وأئمتها « أهل البيت » ولم يظهر للآن ومع كل أحفاد بين العصفوف طلاب حقيقة اخذوا على عاتقهم درس هذه الناحية الهامة ، وتصفية ما نصب إليها وما اثير حوله . والغريب جداً أن عادة الكتاب لا تزال جارية على قاعدة الأخذ والنقل عن المصادر القديمة دون أن يكون هنالك تمييز بين الغث والسمين والصواب والخطأ ، هذه المصادر المحشوة بالشوائب والمغالطات والتي قام على تحريرها وتدوينها أناس اعمى التعصب قلوبهم وقادتهم الدعاية المأجورة أو الخوف من سيف الملوك المصلت على الرقاب إلى الغض من أقدار « أهل البيت » وطمس حسناتهم والنيل من انسابهم والطعن في عقائدهم ، كل هذا جرى بعهد الخلفاء « العباسيين » المضطرب . وفي تلك الفترة من الزمن المليء بالحوادث الجسام . ولنترك التاريخ جانباً فقد يكون من العسير جداً تنفيذ نفذة نفذة ، وأوى أنه من المفيد العودة إلى ما نحن بصده :

بعد أبو الأئمة « علي بن أبي طالب » كرم الله وجهه مؤسس « دعوة الاسماعيليين » ، وباني أسسها وواضح مشايخها . أمة المنفذين « فهم أحفاده ودعاتهم الذين تبوأوا مركز « الإمامة »

من بعده بالنص الحقيقي ، ومتى توصل طالب المعرفة بدراسته إلى معرفة درجة تعلق هذه الطائفة « بالامام » العنصر الهام باعتقاداتها ثم ترتيب « الدعوة » على الأصول المتبعة توصل إلى النتيجة المتوخاة ، فالامام هو صاحب أكبر سلطة روحية ومهذب النفوس الأكبر والرئيس الأعلى للدعوة وهي « المجلس الخاص السري » الذي يضم « الحدود » الأخيار النصحاء والحكماء الروحانيون والعلماء الأوليائيون الذين صفت نفوسهم وتهذبت عقولهم وعزفوا عن الدنيا ونجسوا للأخرة وانقطعوا لعبادة الله واخذوا بنصيب وافر من العلوم الناموسية الشرعية والفلسفة الإلهية . أجل وإن لكل من هؤلاء وظيفة مسؤولا عن سيرها ونجاحها فهذا للوعظ والارشاد وهذا للشؤون المالية وهذا لتدريس أمور الدعوة وذاك للتأليف والشرح والتبشير . الخ . الخ . أما دعاة الأقاليم فلا يدخلون في عداد هؤلاء ، وإن عددهم يكون غالباً سبعة وثلاثة عشر أو عشرة حسب حاجة الدور ومقتضيات العصر . وإخوان الصفاء وخلان الوفاء اسم أطلق على رجال الدعوة بعهد الامام الثامن « أحمد الوفي » المدفون بمدينة « مصياف » قرب حماه . وقد ظل أحفاده الأئمة يطلقون ذات الاسم على رجال دعوتهم حتى عهد الامام التاسع عشر « نزار » آخر خليفة فاطمي في مصر ، ومن هنا بدأ الشك واثرت المناقشات حول « الرسائل » وحول اسماء واضعها . فاعتقد فريق أنه وضع بعهد الامام « الحاكم » بأمر الله الفاطمي والخليفة الخامس وأن من مؤلفيه الداعي الكبير « أحمد حميد الدين الكرمانى » وعلى رأس هذا الفريق العلامة المصري المحقق الدكتور « محمد كامل حسين » . وقد تكون البراهين التي يتذرعون بها واهية والحجج التي يبنون عليها نظريتهم خاطئة ما دام أن أكثرها كما جاء عن « أبي حيان التوحيدى » في كتابه « المقاييس » الذي نقله « القفطى » بكتابه « تاريخ الحكماء » وقد قال بأنه في عام ٣٧٣ هـ - أي بعهد خلافة الامام الحاكم الفاطمي - صادف جمعية إخوان الصفاء وخلان الوفاء بالبصرة ، وهم : البستي ، المقدسي ، الزنجاني ، المهرجاني ، العوفي ، وأنه ناقشهم ودارت بينهم مناظرات . . . وهذه الرواية وإن صحت فلا تعطينا دليلاً على أن هؤلاء هم واضعو الرسائل ما دام أنه جرت عادة الأئمة من أهل البيت أن يسمي كل منهم رجال دعوته بهذا الاسم . أما الفريق الثاني فاعتقد بأنه وضع قبل عصر الفاطميين ، على أن هؤلاء رغم صواب نظريتهم لم يتسن لهم لأن دعم هذه النظرية ببراهين دامغة مقنعة ، فبحث الآن باعتباري أحد الاسماعيليين المتخصصين بدراسة عقائدهم وفلسفتهم أثبت نظريتي القائلة بأن كتاب الرسائل وضع قبل عهد الفاطميين وإليك الأدلة :

إن الامام « الثامن » - أحمد الوفي - بن محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن زين العابدين ابن الحسين بن علي هبط مدينة « سامية » من العراق في أواخر القرن الثاني للهجرة ، وبمصر

المأمون والمعتصم العباسيين وفي زمنه وضعت « الرسائل » وقد كتم أسماؤه أعوانه الدعاة وبالغ بالاستتار مخافة الأضداد وتآلب قوى العباسيين عليه وقد كانوا يحصون عليه حركاته وسكناته ويطاردونه من مكان إلى آخر . وهذا الامام كانت جل اعماله محصورة بالتمهيد للدولة الفاطمية « دولة أهل الخير » .

ثم إن كتاب الرسائل نفسه يحوي رموزاً فلسفية تبشر بقرب ظهور هذه الدولة ، وذلك بختام رسالة : « البعث والقيامة » و « الدعوة إلى الله » و « الحركات » في « جامعة » الرسائل وقد حدد فيها عدد الأئمة أو الخلفاء الذين يقومون بالخلافة في إقليم « افريقيا » . أما اسماء هؤلاء الدعاة وعددهم فلا يمكن الاهتداء إليه إلا من « صحيفة الامام » نفسه . وهذه جرت العادة أن تظل محفوظة لدى الامام يتوارثها خلف عن سلف ، وقد لا يتسنى إلا لرجال مجلس الدعوة « الحدود » الاطلاع عليها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فيجب أن يعلم كل متتبع بأن الأئمة من ذرية علي بن ابي طالب ينقسمون إلى قسمين قسم منهم قام بالدعوة سرّاً وهم المسمون المستورون وقسم ظهوروا وتسمنوا الخلافة وخطب لهم على المنابر وهم اصحاب الكشف والظهور فأما القسم الأول فيبدأ من « زين العابدين » حتى الامام « محمد المهدي » ويبدأ ثانية من « نزار » آخر خليفة فاطمي حتى الامام « خليل الله علي » . والقسم الثاني بعد علي والحسين يبدأ من الامام « محمد المهدي » وينتهي « بنزار » ويبدأ ثانية من خليل الله علي وينتهي « باغا خان » الامام الحاضر . وإن الأقاليم التي قامت فيها الدعوة الاسماعيلية أربعة : أولها الجزيرة العربية ، وثانيها إقليم افريقيا ، وثالثها إقليم فارس ، ورابعها إقليم الهند . فأما الأئمة الذين قطنوا الجزيرة العربية فقد وضعوا مع دعائهم مؤلفات مخطوطة لا يزال يحافظ عليها علماء الطائفة الاسماعيلية في سوريا ومنها كتاب « الرسائل » وإن أكثر هذه المخطوطات لدعاة كتموا اسماءهم بالنظر الستري . أما الذين قطنوا إقليم افريقيا وهم « الفاطميون » فلما كان عصرهم عصر ظهور وضعوا مع دعائهم مؤلفات ظاهرة ومنها « راحة العقل » « مباسم البشارات » « رسالة الصوم » لأحمد حميد الدين الكرمانى . « ديوان المؤيد في الدين » « سيرة المؤيد في الدين » « المجالس المؤيدية » للمؤيد هبة الله الشيرازي « افتتاح الدعوة » « المجالس والمسارات » « دعائهم الاسلام » « كتاب الهمة » « شرح الأخبار » للقاضي النعمان . فهذه الكتب رغم وجودها بكثرة في إقليم « مصر » ومكتباتها فإنه لا يوجد منها لدى الاسماعيليين في سوريا إلا القليل وذلك لأنها وضعت في إقليم غير إقليسمهم ، وهكذا ففي فارس لا يوجد لدى الاسماعيليين فيها إلا الكتب التي وضعت في إقليسمهم هذا دليل على أن الرسائل وضعت في إقليم الجزيرة العربية . ودليل آخر ، هو أن « الفارابي » الفيلسوف المشهور قد ترجم رسالة « الحدود » إلى اللغة الفارسية ، « والفارابي كما

هو يعلي وأصبح أدرك عصر سيف الدولة الحمداني وسيف الدولة هذا أدرك عصره لشعر الفاطمي،
إذن من أين تسميت هذه الرسالة للفلاوي؟ وبين سيف الدولة والامام الحاكم مئات من الأعوام
... دولة أخرى من الرسائل ... :

— الرسالة السابعة : في علم الجغرافيا —

« وقد ترى أيها الأخ البار الرحيم أيديك الله وإيانا بوضع منه أنه قد تنهت دولة أهل الشر،
« وأظهرت قوتهم وأكثرتنا فغالهم في هذا الزمان وليس بعد التناهي في الزيادة إلا الانحطاط،
« والنقصان، واعلم يا أخي أن دولة أهل الخير يبدأ أولها من قوم علماء وحكماء وخيار،
« فضلاء يخصصون على رأي واحد ويتفقون على مذهب واحد ويمتدنون فيما بينهم عهداً،
« وميثاقاً أن لا يتجادلوا ولا يتقاتلوا عن نصرة بعضهم بعضاً ويكونون كرجل واحد،
« في جميع أمورهم وكفئس واحدة في جميع تدبيرهم فيما يقصدون من نصرة الدين وطلب
« الآخرة لا يبتغون سوى وجه الله ورضوانه جزاءً ولا شكوراً » .

يظهر من هذا الملمح بأن دولة أهل الشر والمقصود فيها العباسيون كانت قائمة وقوية متناهية
وأن دولة أهل الخير والمقصود فيها « الفاطميون » لم يبدأ أولها . ثم لو إننا
إخوان الصفاء كانوا يعهد الفاطميين لما بشروا أهل شيعتهم بقيام دولة أهل الخير ودولة أهل
الخير هذه موجودة وقائمة . .

صفحة ٤١٦ — الرسالة الحادية عشرة من العلوم الناموسية والشرعية —

« واليهية هم الخلقاء بغير هذه الصفة من الأنبياء والأئمة والتابعين لهم بالإحسان رضي الله
« عنهم ورضوا عنه » الآخرين بالمعروف والنهي عن المنكر هم خلفاء الله تعالى التابعون،
« لأمره وبهم صلاح العالم وربك كانوا ظاهرين بالعباد موجودين بالمكان في دور الكشف،
« وبالضد من ذلك في دور الستر غير أنهم في دور الستر لا يكونوا عفوذي الوجه بوجه،
« من أعتابهم، فأما أولنا فهم فيعرفون مواضعهم ومن أراد منهم قصدهم فكأن جنودهم،
« كان في ذلك كان منذ خلق الزمان من الإمام الذي هو حجة الله على خلقه وهو تعالى،
« لا يرفع حجة ولا يقطع لطيل الممدود بينه وبين عباده فهم أولاد الأرض وهم الخلقاء،
« بالحقيقة في الدورين جميعاً ففي دور الكشف يظهر ملكهم في الأجسام والأرواح وفي
« دور الستر يصير على أمرهم في الأنفس والعقول وأصحاب المملكة العقلية والخلقة الجسمية،
« إن هذا البحث تعريف الأنواع الاسام عن دور الستر ودور الكشف وتوجب لأهل الدعوة
« بأنفسهم بالإمام في دور الستر لا يقال عن فعله في دور الكشف فلا مجال للباين من دورهم
« السري في الدنيا كانوا موجودين فيه . .

صفحة ٣٠٧ - الرسالة التاسعة من العلوم النافوسية والشرعية -

« فصار ذلك سبباً لاختفاء إخوان الصفاء وخلان الوفاء وانقطاع دولة خلان الوفاء إلى »
« أن يأذن الله بقيام أولهم وثانيهم وثالثهم في الأوقات التي ينبغي لهم القيام بها إذا برزوا »
« من كهفهم واستيقظوا من طول نومهم »

دليل واضح على وجود دور السر والاختفاء لإخوان الصفاء وخلان الوفاء إلا عن شيعتهم ،
إذ ما معنى كهفهم هنا ؟ ثم تبشير بقيام أولهم وهو « تقي محمد » ولي عهد الامام « أحمد الوافي »
وثانيهم وهو « عبد الله الرضي » ولي عهد « تقي محمد » وثالثهم « محمد المهدي » ولي عهد « عبد
الله الرضي » الملقب « بالميجون » صاحب دور الكشف والمؤسس الأول لدولة أهل الخيبر في أذربايجان
صفحة ٢٩٧ - الرسالة السابعة - في كيفية الدعوة إلى الله -

« إن من خواص اخواننا الفضلاء العلماء بأمور الديانات ، المعروفين بأهراق الشبوات »
« المتأدبون بالرياضة الفلسفية فإذا لقيت أحداً منهم وأنست منه وشداً فبشره بما بشره »
« وذكره باستئناف دور الكشف والنجاة القية عن العباد بانتقال القوان من برج مثلاث »
« النيران إلى برج مثلاث النبات والحيوان في الدور العاشر ليست السلطان وظهور الأعلام »
« إن للدور العاشر هنا إشارة إلى الامام العاشر الامام « عبد الله الرضي » الملقب في مدينة
« سلمية » وهو والد الامام « محمد المهدي » وقد ذهب إلى المغرب وولس فيها دعوه الظاهرة
وبرجوعه إلى سلمية لاستصحاب أهله حضرته النقطة فقام بالدور ولي عهد الامام المهدي صاحب
السلطان والأعلام الذي أشارت إليه الرسالة .

ومنها « واعلم أن من إخواننا وأهل شيعتنا طائفة بوجودنا ما كون وفي بقائنا متجرون »
« فيما يعتقدون من موالاتنا وطائفة أخرى موقنون ببقائنا لكنهم غافلون عن أمرنا غير »
« عازفين بأهراقنا ولكنهم منتظرون ظهور أمرنا مستعجلون لحي « أياض مشتهون نصره »
« أمرنا فإذا لقيت منهم أحداً فبشره بما بشره وقر عينه بما يظنه وعرفوا أن ما يرجوه غير بعيد »
« لا أخال هذا المقطع يحتاج إلى تفسير ما دام أن اخوان الصفاء أنفسهم يعتقدون بأنهم في
دور سر ، إذ ما معنى ظهور أمرنا وبجي « أياضنا ؟ وما معنى بشارتهم لأهل شيعتهم هنا بقولهم :
أبشروا وقرؤا عينا إن الوقت أصبح غير بعيد . »

هناك أدلة أخرى أراجعتها الآن بحافة التطويل وسأعود لذكرها بفرصة أخرى وكلها تثبت
أن رسائل اخوان الصفاء وضعت قبل العصر الفاطمي وبعهد الامام الثامن « وفي واحد » .